

الضريح الملكي العائلي المشترك بين الوصف العام و الدراسة العلمية

الحاج الطاهر زكية

المركز الجامعي لتيبازة

1 - تمهيد :

يقع الضريح الملكي العائلي المشترك في ولاية تيبازة، على إحدى مرتفعات الساحل التي تعلو سطح البحر بـ 261 م التابعة لبلدية سيدي راشد. ويكون التوجه إليه عبر الطريق الوطني رقم 11 عند منعطف الصخرة المسطحة Le Rochet Plat نحو قمة المرتفع.

أ - المظهر العام للضريح :

يعد الضريح الملكي المعروف عند العام بقبر الرومية، والذي وصفه المؤرخ الروماني بومبينيوس ميلا⁽¹⁾ في القرن الأول ميلادي بالضريح الملكي العائلي المشترك «Moni-muntum Commune Regiac Gentis»، من الأضرحة الضخمة في شمال إفريقيا (الجزائر) المبنية على شكل البازيناس، إحدى معالم الحضارة الميغاليتية في شمال إفريقيا، فأساس بنائه هو البازيناس.

يتكون الضريح من جزأين هامين هما: الجزء ذو الشكل الدائري أو الأسطواني، حيث يتخلله ستون عمودا أيونيا، تنتهي كلها بتيجان أيونية⁽²⁾، وهذا ما يضيف على الضريح طابع الهندسة الإغريقية، التي طالما اتسمت بها المنشآت الإغريقية خاصة في إقليم أيونية، أما الجزء الثاني، فهو يعلو الأول، وهو على شكل مخروطي، يفصله عن الجزء الأسطواني إفريز، وقد بني الضريح بجزئه الأسطواني والمخروطي على قاعدة مربعة طول ضلعها 63.40م، وهذه القاعدة المبلطة بنيت فوق طبقة حجرية تتألف من حصيات صغيرة، ويوصل إلى المبنى بدرج مبني بالصخور. أما عن مقاييسه الهندسية، فهو يبلغ حوالي 33م، يمكن أن يصل في الأصل إلى 40م⁽³⁾، أما محيط دائرته، فيبلغ 185.50م، و قطر دائرته حوالي 60.90م. أما الجزء الأسطواني «Le Cône»، فيتكون من 33 درجة «Gradins»، ارتقاع كل واحدة 0.58م، وينتهي أعلى المبنى بسطح «Plate forme»⁽⁴⁾.

ب- الأبواب الوهمية :

يتخلل مبنى الضريح الملكي أربعة أبواب وهمية، مصنوعة من صفائح حجرية على شكل منحرف «Trapèze»، وهذه الأبواب الوهمية «Fausses Portes» مقابلة للجهات الأربع، واللافت للنظر هو تزيين هذه الأبواب بنقوش بارزة على شكل صليب، مما أدى إلى التسمية المعروفة بقبر الرومية أو «Tombeau de la chrétienne»، وربط الضريح بالديانة المسيحية.

و حسب عالم الآثار الجزائري منير بوشناقى فإن هذه الصفائح للأبواب الأربعة، والتي يبلغ ارتفاعها 6.90م لم تصنع كصفيحة واحدة، إنما الباب مركبة من أربع قطع حجرية مؤطرة بحافة حادة، وعند جمعها وتركيبها تعطي لنا الشكل العام الذي يوحى بشكل الصليب⁽⁵⁾.

ج- وصف الضريح الداخلي :

يولج إلى داخل الضريح عن طريق فتحة أحدثت تحت الباب الوهمي الشرقي، وهذا المدخل هو على شكل ناووس، أحدث إثر أبحاث أدريان بربروجر «Adrien Barbrugger» المفتش العام للآثار بالجزائر في عهد نابليون الثالث، عندها اكتشف لأول مرة دهليز أو ناووس يؤدي إلى الباب الحقيقي الواقع تحت الباب الوهمي الشرقي، وتحقق فعلا أن باب الضريح واقع تحت الباب الشرقي، وهذا الباب ضيق، ومنخفض، حيث يبلغ ارتفاعه متر وبعض السنتيمترات، تسده صخرتان، الواحدة فوق الأخرى، وقد اعتبرت في أول وهلة من حجارة البناء⁽⁶⁾.

مباشرة بعد باب الدخول توجد باب أخرى «Coulissantes»، وكانت عبارة عن باب مبلطة (Une Dalle Porte)، فكان هذا البلاط يرفع أو ينزل على شكل مسلفة، عن طريق رافعة (Levier)، وقد عثر على هذا الباب مكسورا.

بعد اجتياز هذا الباب نجد أنفسنا أمام دهليز منخفض، حيث يضطر المرء إلى الإنحناء في المشي، يسده باب آخر مثل الأول (Coulissantes)، لنصل بعدها إلى بهو متوسط الأبعاد (5.50م طولاً، و2.50م عرضاً، و3م ارتفاعاً)، حيث نلاحظ على الحائط الأيمن منه نقش يشد الأنظار، هو عبارة عن أسد و لبؤة، و لهذا أطلق عليه بهو أو قبو الأسود، هذا النقش موضوع بعناية على حائط حجرى فوق باب لرواق ثانى، وهو النقش الوحيد الموجود في الضريح سواء في الداخل أو في الخارج، وربما هو اقتباس لنقوش الآلهة المصورة على شكل اسد في البناءات الدينية في الشرق القديم⁽⁷⁾.

يتبع هذا الرواق الثاني بالرواق الكبير المستدير الذي يوصل إليه بدرج مكون من 7 درجات، حيث يبلغ طول هذا الرواق «La Galerie Voutée» 141م، على مترين عرضاً، وتقريباً مترين و نصف ارتفاعاً، وعلى طول الرواق نلاحظ فجوات أو مشكوات على الجدار، عددها 51 مشكاة، يفصل بعضها عن بعض 3 أمتار، يتجه الرواق الدائري من اليمين نحو اليسار، حيث يبدأ من الباب الشرقي مروراً بالأبواب الوهمية الشمالية فالغربية فالجنوبية، و ينتهي عند مركز البناء عند باب موجهة نحو الشرق، يغلق عن طريق مسلفة، متبوعاً بغرفتين متتاليتين يفصل بينهما باب، كلا الغرفتين لهما سقف مقبب، وتتجهان من الشمال نحو الجنوب، والغرفة أو المعزبة الثانية المقصودة هنا، هي الغرفة المركزية للبناء، المزينة بثلاث مشكوات من الشمال والجنوب والغرب، وهي نفسها الغرفة التي يصطلح عليها دائماً بالغرفة الجنائزية، التي لم يعثر فيها على أي بقايا بشرية مدفونة ولا على الأدوات والآثاث الجنائزي، التي عادت ما تكون في الأضرحة على هذا المستوى، ولا على الكنوز التي تناقلتها الروايات⁽⁸⁾.

2 - الأبحاث الأثرية حول الضريح

أ - مرحلة الهواة :

لقد ذكر هذا الأثر التاريخي في العديد من المؤلفات، منها ما ذكره المستشرق هنري بارك «Henri Berque» في مؤلفه (الجزائر أرض فن و تاريخ)، وجاء ذكره في كتاب المسالك والممالك، للجغرافيه العربي البكري، وبدأت أولى الأبحاث عنه في شكل هواة، ثم أخذت طابعا علميا رسميا، و سواء كانت هذه الأبحاث علمية أو هواية، فقد كان الهدف منها إماطة اللثام عن هذا الضريح.

كما جاء ذكره أيضا في أحد التقارير العسكرية لأحد ضباط جيش شارل الخامس «Charles Quint»، ثم كتب عن الضريح في إصدار له سنة 1573م، ووصفه في سنة 1738 اللاهوتي توماس شو «Thomas Chaw» أحد أعضاء البعثة الإنجليزية بالجزائر.

و ذكر الضريح أيضا في كتاب (أتلنتيد) Atlantide لصاحبه بيار بونوا «Pierre Benoît»، الذي ينوه فيه إلى وجود «هرم عجيب من الحجارة جنوب شرشال، غرب واد ماء الزعفران ... ويضيف هناك دفنت كليوبترا سيليني ابنة كليوبترا و أنطونيوس»⁽⁹⁾.

وفي العهد العثماني باشر الصالح رايس سنة 1555م البحث الفعلي عن الكنوز التي تناقلتها الروايات داخل القبر، وأقدم على قصف المبنى بالمدفع، مما ألحق اضرارا بالباب الشرقي.

أما في القرن 18 م أمر داي الجزائر بابا محمد بإجراء حفريات حول الضريح، لكن دون الوصول إلى نتائج علمية ما عدا العثور على قطع من الرصاص التي كانت تلصق بها الصخور.

ب - الحفريات العلمية :

أولى الحفريات العلمية بدأت على يد أديان بربروجر من سنة 1865 إلى سنة 1877 بأمر و تمويل من طرف نابليون الثالث، و كان هدفه البحث عن الغرفة الجنائزية، وقد استعمل مسبارا كالذي تحفر به الأرض لغرض استكشاف الضريح من الداخل، و بعد عدة محاولات سقطت المسبار في مكان فارغ، عندها حضر باربروجر عند الباب الوهمي الجنوبي نفق للوصول إلى ذلك المكان الفارغ، فاكشف بعده دهليز يؤدي إلى الباب الحقيقي الذي يقع تحت الباب الوهمي الشرقي⁽¹⁰⁾.

و تابع الأبحاث كريستوفل، المهندس المعماري للآثار التاريخية في الجزائر قبيل الاستقلال داخل المبنى، وقد أعد بعد ذلك تقريراً جدهام حول هندسة المبنى الداخلية، وعن شكل الغرفة المركزية التي يحوم حولها الغموض إلى اليوم⁽¹¹⁾.

ج - هل الغرفة المركزية هي الغرفة الجنائزية:

عدة فرضيات طرحت حول هذا الموضوع، باعتبار أن الغرف المركزية في الأضرحة هي التي يوضع فيها الرفات، وقد تعارضت فكرة اعتبار الغرفة المركزية على أنها هي الغرفة الجنائزية لعدة اعتبارات، منها ضيق الغرفة في حد ذاتها⁽¹²⁾، إذا تم التسليم بأن الضريح ملكي مشترك بين أفراد العائلة، أيضاً عدم العثور على الأدوات الجنائزية والتي عادة ما ألّفناها تدفن مع الميت في العالم القديم في كل الحضارات، والتي تتنوع من أدوات الزينة إلى فخاريات، وأيضاً الأسلحة.

نقطة هامة يجب التنويه إليها تتمثل في بعض عادات الدفن لدى الشعوب القديمة في بداية وعيها الديني تتمثل في حرق الجثة، فإذا كان الأمر كذلك بالنسبة للضريح، فهي حتماً تكون في عدد من المشكاة المحفورة داخل الغرفة الجنائزية (هذا محتمل ولكن في وجود رماد الجثث) الأمر الذي ما زال لغزاً إلى اليوم.

و إذا نظرنا إلى الضريح كما ينظر إلى الأضرحة الكبرى خاصة في مصر، هل يمكن أن يحتوي الضريح على غرفة جنائزية أخرى خفية كما هو الأمر في الأهرامات مخفية عن طريق غرف أخرى تمويهية، أو غرف لإقامة الطقوس الدينية الجنائزية؟، لكن اعتبار الغرفة المركزية غرفة إقامة الطقوس غريب نوعاً ما بسبب ضيق مساحتها.

د - لمن يعود الضريح ؟

أقدم نص كتب حول الضريح يعود للمؤرخ اللاتيني بونبينيوس ميلا يعود إلى 40م، يذكر فيه «...وهناك الضريح العام للأسرة الملكية...ثم إكوزيوم...»، عند وصفه للساحل الإفريقي، فهو ينوه أن الضريح للأسرة الملكية الموريطانيا القيصرية⁽¹³⁾.

و يرى ستيفان غزال «Gsell» أن بونبينيوس قد أخذ من مصدر أقدم منه، هو منشور يعود إلى «فارون» ذكر فيه الضريح، و يذكر غزال أن «فارون» متوفى سنة 27 ق.م، أي قبل تنصيب يوبا الثاني ملكا على موريطانيا القيصرية بسنتين، و هذا يدل على أن الضريح لا يعود إلى العائلة الملكية الموريطانية ولا لكليوبترا سيليني كما هو مزعوم، إذ أن ملك يوبا الثاني كان ما بين 25 ق.م و 23 م⁽¹⁴⁾.

إذا فإذا صح القول الوارد حول الضريح العام للأسرة الملكية يرجع إلى «فارون» فلا يمكن اعتبار نسب بنائه إلى يوبا الثاني صحيح⁽¹⁵⁾.

و يتضح من خلال كل ما تقدم أن المشكل التاريخي حول بناء الضريح جد معقد، ما لم يتم العثور على المعزبة الجنائزية، وأدواتها، والإستقراء العام لشكل بنائه.

هـ- المعطيات الهندسية للضريح:

أما عن كونه قبرا، فهذا قد اشار إليه «فارون»، ومن بعده «ميلا»، و كما سبق ذكره، فهذا الضريح مبني على شكل القبور الافريقية المعروفة باسم البازيناس، تتألف من حجارة موضوعة فوق بعضها البعض، على شكل كومة لحماية القبو الجنائزي الذي لا يتعدى حجمه حجم التابوت⁽¹⁶⁾، وما الضريح الملكي وضريح المدغاسن إلا نماذج متطورة عن البازناس، وكذلك الضريح المخروطي الذي اكتشف في مصب نهر التافنة على ربوة غير بعيد على مدينة سيقا، عاصمة سيفاكس ملك نوميديا الغربية، فالضريح كغيره يعتبر ذو بناء محلي مكسي بالتأثيرات الخارجية⁽¹⁷⁾.

و - التأثيرات الهندسية الخارجية :

- تشابه شكل زخرفة الأبواب الوهمية بشكل زخرفة مسلة فينيقية وجدت بدلس⁽¹⁸⁾.

- التيجان التي تزين الأعمدة في الضريح هي تيجان إيونية، حيث تحتوي على حلزونتين مقلوبة إلى الأسفل متصلة بواسطة قناة، وقد لاحظ ستيفان غزال أن قناة التيجان في الضريح الملكي مستديرة في الأسفل عوض ان تكون مستقيمة كما كانت في القرن 4 ق.م، وهذا الشكل من القنوات المستديرة تميزت به الهندسة الإغريقية قبل الحروب الميديّة في القرن 5 ق.م، ولم يبق صنعه في المعامل إلا في قرطاجة قبل زوالها في القرن 2 ق.م، تحديدا سنة 146 ق.م.

- البلاطات التي تركز عليها الأعمدة في الضريح هي على شكل نقishtين مستديرتين، وهي ذات أصول هندسية أوتيكية (إقليم أتیکا في اليونان).

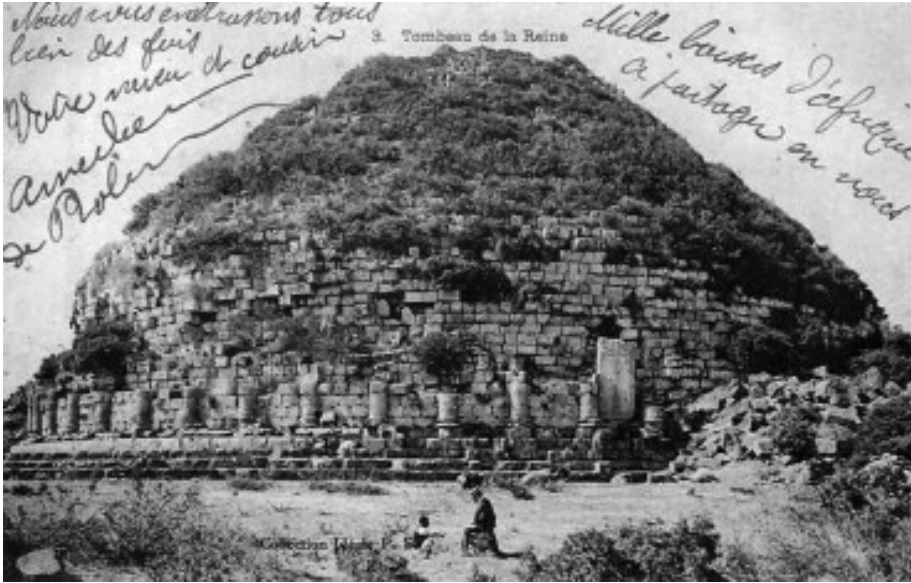
هذا ما أدى بستفان قزال إلى نفي انتماء الضريح إلى الحقبة التاريخية التي كان فيها يوبا الثاني ملكا على موريطانيا القيصرية، وإرجاعه إلى زمن أقدم من ذلك، ربما يعود إلى نهاية القرن الثاني ق.م.

و يروج أن يكون القبر لبخوس الأول أو القديم، الذي عاصر ملكه نهاية القرن 2 ق.م (105 ق.م)⁽¹⁹⁾، وهكذا نرى أن المعطيات الهندسية للقبر زادت من حدة تعقيد مشكل زمن بناء الضريح وانتسابه.

خاتمة :

وفي الأخير نستنتج أن الضريح بناء إفريقي محلي ذو تأثيرات إغريقية، ودليل واضح على وجود مجتمع راقي على أرض نوميديا أو موريطانيا القيصرية قادر على الاتصال بالحضارات القديمة من فينيقية، ومصرية، وإغريقية، والتواصل معها، ونتيجة لذلك هذا الإبداع الفني المعماري الراقي الأصيل، سواء كان لأسرة ملكية نوميديا أو موريطانية، فيبقى الضريح من الآثار الكبرى التي تركها الإنسان الجزائري على تراب هذه الأرض في القديم، ودلالة شاهدة على أصالة الفرد الجزائري.

الملاحق:



الصورة 1: الضريح الملكي كما وجده الباحث بربروجر.



الصورة 2: صورة جوية توضح القاعدة المربعة للضريح.



الصورة 3: قبو الأسود. (عن الديوان الوطني لاستغلال وتسيير الممتلكات الثقافية).



الصورة 4: مدخل الغرفة الجنائزية. (عن منير بوشناق).

الهوامش :

- 1 - Pomponius . Mela .Géographie I. Trad. Baudet (L) .ed. Pankoucke .paris 1846 .p6.
- 2 - A . Judas . Note sur l'origine du nom du Kber-erroumia dit tombeau de la chrétienne.
- 3 - Berque (A) . L'Algérie terre d'art et d'histoire .ed. Heintz. Alger .1937.p.16 .
- 4 - Mounir Bouchenaki . Le Mausolée royal de mauritanie .Imprimerie officielle . Alger . 1970 .p.8.
- 5 - Loc cit .
- 6 - A.Barbrugger. Rapporteur des travaux exécuté au tombeau de chrétienne . dans la revue Africaine . TXI .1867.PP39-48 .
- 7 - Mounir Bouchenaki . Op cit .15.
- 8 - Loc cit .
- 9 - A . Barbrugger. Le tombeau de la chrétienne . d'après Shaw et Bruce . dans la revue Africaine . T10 .1866. pp 441-450 .
- 10 - A.Barbrugger . Le tombeau de la chrétienne . Mausolée des rois mauritanienne de la dernière dynastie . blida 1867 .
- 11 - A . Ballu . Rapports sur les travaux des services des monuments historique de l'Algérie .1918-1923 (travaux dirigé par christofle) .
- 12 - ST . Gsell . Le tombeau de la chrétienne dans CR du XIV congrès de l'A F A S . Carthage 1896 .TII .pp767-778 .
- 13 - Pomponius . Mela . Op cit .p. 46 .
- 14 - De laurriere . Deux mausolées africains .bulletin monumental .série 5 1876 .pp305-346.
- 15 - ST . Gsell . Promenade archéologique aux environ d'Alger . Alger 1896 .pp157-152.
- 16 - ST . Gsell .Histoire ancienne de l'Afrique du nord . T VI .PP. 266-273.
- 17 - ST . Gsell .Histoire ancienne de l'Afrique du nord . T VI.pp. 266-273.
- 18 - P .Salama .Tombeau royal mauritanien. Revue du ministère du tourisme n° 4 1967.
- 19 - ST . Gsell. . Le tombeau de la chrétienne dans CR du XIV congrès de l'A F A S . Le tombeau de la chrétienne dans CR du XIV congrès de l'A F A S . Carthage 1896 .TII .pp767-778 .